بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربي خاص بالعصر العباسي الثاني، وقد تناولت فيه الحياة السياسية وما حدث فيها من تحول مقاليد الحكم من أيدي الفرس إلى أيدي الترك. ولم يكونوا أصحاب ثقافة ولا حضارة، ولا كان لهم معرفة بإدارة ولا بنظم سياسية، ففسدت الأداة الحكومية فساداً شديداً. وكانت هناك طبقة تغرق في الترف والنعيم، وكان جمهور الشعب يعيش في الضنك والبؤس. وظلت الحياة العقلية مزدهرة بما نقل- وما كان ينقل- من الثقافات الأجنبية، مما هيأ لظهور فلاسفة عظام وعلماء بارعين في جميع العلوم اللغوية والبلاغية والنقدية والتاريخية والإسلامية والكلامية.

وصورت نشاط الشعر حينئذ وكيف تمثل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية تمثلا تاما، وكيف أودعوا أشعارهم ذخائر فكرية غزيرة، مما جعلهم يجددون في الموضوعات القديمة والأخرى المستحدثة في العصر العباسي الأول صورا مختلفة من التجديد، تحفل بما لا يكاد يحصى أو يستقصي من الأفكار المبتكرة والأخيلة المبتدعة، وظلوا ينمون الشعر التعليمي وينظمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة.

وبحثت بحثا تحليليا تاريخيا أعلام الشعراء في العصر، وهم على بن الجهم والبحتري وابن الرومي وابن المعتز والصنوبري، أما ابن الجهم فكان داعية للمتوكل يصيح مهللا مع كل عمل له، وأروع أشعاره ما نظمه في الاستعطاف وفي تصوير صلابة نفسه حين ادلهمت له الخطوب ونزلت به الكوارث، وكان البحتري الشاعر الرسمي في بلاط الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد، وأشعاره تمثل النزعة المحافظة التي سادت حينئذ في الشعر ونقده وتذوقه، مع ما سخر له فيها من تلاوين الجمال الموسيقي الآسر وأنغامه وألحانه الرائعة، ومع مهارته في وصف المعارك البحرية ومظاهر الحضارة والعمران. وكان يقابله ابن الرومي ممثل النزعة التجديدية في الشعر وموضوعاته وأساليبه ومعانيه، وقد نفذ بعبقريته النادرة إلى لون جديد من شعر الطبيعة الرائع ولون جديد آخر من الهجاء الساخر، غير أفكار وخواطر وتصويرات لم تخطر لمعاصريه ولا لسابقيه على بال. وتبرز حياة ابن المعتز وبيئته المترفة ومأساة أبيه وجده في أشعاره، وهي تزخر بالصور والأخيلة. وكان الصنوبري يعني بصنعته الشعرية، وهو من شعراء الطبيعة، ويعد أول ناظم للثلجيات في العربية.

وعرضت لكثيرين وراء هؤلاء الأعلام، ووزعتهم على طوائف متقابلة، فشعراء للسياسة مع الخلفاء العباسيين أو مع الشيعة أو مع بعض الثوار، وشعراء لبعض الوزراء والولاة والقواد، وشعراء هجاء عادي أو مرير، وشعراء غزل عفيف أو مادي صريح، وشعراء لهو ومجون، وشعراء زهد وتصوف، وشعراء شعبيون. وحاولت أن أتحدث في كل طائفة عن خير من يمثلونها، مع تصوير موجز لشخصياتهم الأدبية.

ومضيت أبحث النثر والتحام الفلسفة فيه بالعبارة الأدبية مصورا كيف تعاونت بيئات مختلفة في وضع مقاييسه البلاغية، وكانت الخطابة قد ضعفت، ولكن الوعظ نشط نشاطا واسعا، وتحول من مواعظ زهدية إلى مواعظ صوفية، وأخذ ينشأ نثر صوفي شعبي يعتمد على القصص والحكاية بأسلوب بسيط تفهمه العامة. وتكثر المناظرات في جميع البيئات العلمية، وتصبح من طوابع الكتابات الأدبية. وتجمع أقاصيص كثيرة عربية وغير عربية في صور متقابلة من القدح والمدح. وتظل الرسائل الديوانية مزدهرة بفضل كتابها النابعين. وتنشط الرسائل الإخوانية، ويساعد ضيق رقعتها على أن يتكاثر فيها التأنق والتنميق. ويكتب ابن المعتز رسالة أدبية يملؤها بسجع كثير. ولا نصل إلى عصر الخليفة المقتدر حتى يصبح السجع اللغة العامة للنثر الأدبي جميعه.

وبحثت أعلام الكتاب حينئذ، وهم إبراهيم بن العباس الصولي، والجاحظ، وابن قتيبة، وسعيد بن حميد، وأبو العباس بن ثوابة، وكان الصولي أول رئيس لديوان الرسائل في العصر، وعنه كانت تصدر الكتابات الديوانية من منشورات وغير منشورات، وهو يعني بدقة ألفاظه واصطفاه كلماته وحسن جرسها في الأداء. والجاحظ أكبر كتاب العصر غير منازع، وكتاباته مرآة صافية لعصره بجميع طبقاته، مع ما يسري فيها من الاستطراد ومن روح الدعابة، ومع ما تموج به من أسلوب الازدواج الرائع. وقد عرضت خمسة ألوان من فنه النثري، وهي المناظرة، والرسائل الإخوانية، والرسائل الأدبية، والقصص، والنوادر. وابن قتيبة أكبر مؤلف أدبي بعده، وهو يمزج في كتابه: "عيون الأخبار" بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية وكذلك ثقافة أهل الكتاب. وبذلك ألغى الحواجز بين تلك الثقافات مثبتا أنها أقواس وهمية، فقد استحالت جميعها في كتابه ثقافة عربية، وقلما ارتفع بعده صوت للشعوبية. ويتشبه ابن قتيبة كثيرا بالجاحظ في تمسكه بالواقع ومزج الهزل بالجد وفي استخدامه لأسلوب الازدواج من حين إلى حين. وما زال سعيد بن حميد يرقى في الدواوين، حتى أسند له ديوان الرسائل، وكان يعنى بالتدقيق في ألفاظه ومعانيه، نافذا من خلال حيل عقلية كثيرة إلى أفكار مبتكرة طريفة، مع تقطيعات صوتية تضفي على أسلوبه جمالا. ويلمع اسم أبي العباس بن ثوابة، وكان بدوره من رؤساء ديوان

الرسائل، وكان يكثر من التأنق والتكلف في كتابته، مما جعله يستخدم فيها أحيانا السجع، مع العناية بالتصوير، ومع وزن الكلام بمعيار بياني دقيق.

والله ولي الهدى والتوفيق .

القاهرة في أول مايو سنة١٩٧٣ م

شوقي ضيف